العالم يغيّر الطفل

حلمت في الليلة الماضية حلماً مريعاً، هناك غزاة غرباء كانوا قد عرّفوا الضعف الإنساني الرئيس، ألا وهو عدم القدرة على مقاومة جاذبية الأطفال الأذكياء. قاموا بإنزال المظلات المليئة بملايين قطع الحلوى، كما قاموا برمي الرزم الملائكية الصغيرة التي تمّ تبنّيها حالا من قبل عائلات محبة وسعيدة، ولكنها سرعان ما تحوّلت إلى قنابل زمنية مدمّرة تأخرنا في اكتشافها.

ليس هناك من داع لقيام سيغموند فرويد من الموت كي يقرأ المعنى الكامن وراء ذلك الحلم. تملّكني الفزع، كوني المسؤول عن أوليفر، كنت فزعا من حدوث الأسوأ لو بقينا معا لمدة من الزمن.

سأحاول التغلب على هذا الخوف غير المنطقي مواجهته بشكل مباشر. ستعود ليندسي إلى عملها حيث ستعمل لنصف

الأسبوع لبعض الوقت ثم ستعمل بدوام كامل. وهكذا أمامي عدة فرص وفترات قصيرة أمضيها مع أوليفر قبل أن يكون لزاماً علي الاعتناء به بشكل دائم ومنتظم.

سيكون عليّ في نهاية هذا الشهر أن أكون وجها لوجه مع كوابيس أخرى متكررة. فقد كنّا نخطط لزيارة أهل ليندسي برحلة ستستهلك 300 ميل، ثم أهلي وبعدها نتوجه لقضاء العطلة في الويلز، حيث سنجتمع هناك ثانية بوالد ووالدة ليندسي بالإضافة إلى أختها وأخيها. نحن لا نؤمن بأنصاف المعايير.

*****

إنها فترة غريبة للقراءة بين السطور، منذ أن عدت إلى غرفة المكتب القديمة أصبحت حريصاً جداً على وقت عملي، وكان الوضع لا يحتمل بسبب الضجيج الآتي من الأسفل. من المؤكد أن هذا كان قاسيا على ليندسي، التي كانت تعمل ما بوسعها ليبقى الطفل هادئا.

لقد بدأت عمليّة صعبة لفصل نفسها عنه تدريجياً، وقد كنّا نعمل جاهدين لتتمّ عملية فطامه. فهي لن يكون بوسعها الذهاب إلى عملها في المكتب ذي الأجواء الذكورية وصدرها ممتلئ بالحليب.

عمليّا، ليس لديها إلاّ يوم عمل واحد هذا الشهر في المكتب، بدوام جزئي. وقد استغليت ذلك الوقت للخروج بالصغير في جولة بالسيارة وحدنا للمرّة الأولى.

أدركت، وبعد حوالي خمس دقائق على خروجنا، بأنّي لم أقم بشراء كيس الحفاظات أو أي شيء من الملحقات الّتي كانت ليندسي تحملها قبل أي رحلة عادية. ولكن هذه لم تكن رحلة عاديّة، كانت رحلة سيّئة التحضير. شبكت أصابعي وأنزلت قدميّ للأسفل.

وبما أنّ أوليفر كان يظهر عدداً من الإشارات الّتي تدل على الحبّ، أو عدم الحبّ، فقد كان أمامي عدة خيارات لمكان رحلته الأولى. نستطيع الجلوس في المنتزه، ولكنّ الطقس لم يكن مناسبا. أو نستطيع الذهاب إلى حديقة الحيوانات، ولكنّه من المحتمل أن يصاب بالذعر من رؤية الحيوانات. ولهذا رأيت أنّه من الأفضل أخذه إلى المكتبة، حيث الهدوء والدفء، وحيث أستطيع أن أقضي ساعة سعيدة متجوّلا بين الكتب. كان على أمّه أن تعطي تعليماتها قبل أن ننطلق. ولكن، يبدو أنّ دخول المكتبة كان ضدّ رغبته، فبدأ بكسر الهدوء المخيّم هناك وذلك بإطلاق صيحات متقطعة، فبدا وكأنّه ناقوس مكسور وهو يطلق صرخاته تلك، ولهذا اضطررت، وبعد عشر دقائق، للقيام بشراء عشوائي ومتهوّر لبعض الكتب، ومن ثمّ لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا يمكن أن أفعله لبقيّة اليوم.

ذهبنا إلى البحيرة، حيث قام أوليفر بمراقبتي بينما كنت أشاهد الطيور وأتناول المثلجات. وبالرغم من أن هذا المشهد لم يكن اعتياديا في شهر كانون الثاني إلاّ أنّه مكّنني من

إضاعة خمس دقائق أخرى، ثمّ سلكنا طريقا طويلة للعودة إلى البيت. استغرقت الرحلة ساعتين ونصف تقريبا، وبلغ مجمل تكاليفها 25 جنيها. ونتيجة لهذا اكتشفت أنه ينبغي عليّ التخطيط بشكل أفضل للأيّام المقبلة.

تبدو الحياة وكأنّها عملية إعادة توزيع أدوار ومسؤوليّات. كان لدينا، أنا وليندسي، ما يكفي من الذكاء بحيث استطعنا الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الوقت لأنفسنا. لم تكن الأشهر الثلاثة الأخيرة شديدة القسوة مقارنة بالأشهر الثلاثة الّتي تلت الولادة، ولكنّها لم تكن أيضا لذيذة وسهلة مثل تناول كأس من العصير المثلج.

وبصرف النظر عن تلك الليلة الفريدة، فلم يكن لدينا، كزوجين، إلا القليل من الوقت لنمضيه معا. وسقط الجنس بشكل طبيعي من حساباتنا وخاصة مع مشاركة أوليفر لنا في غرفة نومنا. وكان جزء من السبب الكامن وراء ذهابنا لتمضية العطلة في الويلز هو ترك أوليفر تحت رعاية العائلة كي نتمكن من قضاء وقت مميز معاً قبل أن تبدأ ترتيبات العمل الجديد.

الصغير والقلِق

قضاء الوقت وحيدا مع الطفل

من المفترض أن تكون العناية بالطفل أمر سهل، فهو صغير تملؤه الدهشة من العالم المحيط به ومتطلّباته المالية قليلة نسبيا. ولكنّي مع ذلك كنت أبتدع الوسائل الممكنة لجعل التجربة مجهدة ومليئة بالتعقيدات.

إنّ القاعدة الأولى لتمضية الوقت وحيدا مع طفلك هو تفهمك لكيفية فطام الطفل، تغيير الحفاظات، نظام طعامه... إلخ، والمواظبة على ذلك ولو أدّى هذا إلى إفساد يومك الرائع. لا تكن شديد الطموح، لا تنس أن تحزم كل الأشياء الأساسية الّتي تحتاجها عند خروجك مع الطفل مهما كانت الرحلة قصيرة كالحفاظات والأكياس ومحارم التنظيف وبعض الملابس الإضافية.

يحاول بعض أصدقائي، وبنيّة حسنة، أن يجعلوا أوقاتهم مع الطفل أكثر تميّزا وذلك باللعب معهم بطرق تكون عادة غير مناسبة. إنّ هذا الوقت ليس اختباراً لمدى هدوئك وحسن تصرفك أو لمدى تحمّلك للمسؤولية كأب، فهذا سيأتي لاحقا خلال تطوّر طفلك الّذي لن يكون متأثّرا بجهودك الّتي قمت بها.

إنّ أفضل رهان تقوم به الآن هو تمضية أكبر وقت ممكن متفاعلا مع طفلك سواء أكان ذلك يعني أخذه في نزهة أو مجرد الجلوس معه على السجادة في الحديقة. إنّ هذا يشبه الدخول في أجواء حرّة، بسيطة بعيدة عن القلق والتوتر.

من المهم أن يكون لديك مكان آمن ليلعب طفلك فيه حين تكون معه طوال اليوم أو حتّى عند تمضية نهاية الأسبوع. إن الدليل الصغير، المتعلق بالطفل، سيخبرك بأن لا تترك الطفل وحيدا أبدا، ولكن ذلك لا يعني أن لا تستجيب للقرع على الباب، أو لرنّات الهاتف، أو حتى لنداء الطبيعة. عليك الحصول على قفص مناسب للطفل تضعه فيه مع بعض ألعابه ريثما عود إليه.

إن الأمر كله على كل حال يتعلق بحسن التدبر والتصرف. لا تصب بالذعر لو حصل أيّ خطأ فتصرفات الأطفال لا تتبع أي منطق معين، ولذلك ليس هناك أيّ فائدة من مناقشة سبب ذلك الخطأ. ولكن يمكنك أحيانا توقّع تصرّفات الطفل، كما أنّه يسهل عليك صرف انتباهه والتحايل عليه، فإن كنت تعبس في وجهه مثلاً يجدر بك تغيير هذا الأسلوب إلى أن تنجح بإزالة عبوسه.

وأخيرا، تأكّد من معرفة مكان وجود الدواء ومكان وجود كتيب السّجل الطبّي للأطفال.

*****

بدأ كل شيء بداية واعدة؛ فقد كان أوليفر على قدر المسؤوليّة بشكل رائع خلال الرحلة الطويلة في السيارة، ولم يبدأ بالتذمّر إلاّ عند الجسر السابع. كنت أقود بسرعة خمسين ميلا في الساعة، وكانت الريح والمطر تضربا السيّارة بقوة، ولكنّي استطعت مواصلة القيادة يدفعني الأمل والتفاؤل بقضاء عطلة سعيدة.

وبالرغم من استغراق الرحلة لساعتين إضافيتين من القيادة تحت جنح الظلام والعواصف قبل الوصول إلى الكوخ، إلاّ أنّي ما زلت أشعر أنّ العطلة تستحقّ هذا العناء. كان المكان رائعا، استغرق أوليفر مباشرة في النوم، وبعد أن شربنا فنجانين من الشاي الساخن ذهبنا إلى الفراش متطلّعين بشوق لما يحمله الغد.

في الصباح التالي كان الجوّ أفضل، فسبحنا في بركة السباحة الداخليّة ثم تجوّلنا بعد ذلك في الأراضي المجاورة. كانت تلك هي الجنّة. وشعرنا براحة لم نشعر بمثلها منذ أسابيع، بل منذ أشهر.

بالرغم من وصول عائلة ليندسي فإنّ الأمور ما زالت بخير. لقد أحبّوا الكوخ، وجلسنا جميعا حول بركة السباحة، حتّى إن أوليفر حظي بغطسة سريعة. ومع وصول شقيقة ليندسي أخذت الأمور بالتوتّر. لقد كانت طريقتنا الخاصة بتربية طفلنا تتعارض مع آراء أهل زوجتي الذين كانوا يدفعونه

دائما لفعل أشياء جديدة؛ مثل التدحرج أو اللعب بالألعاب الّتي أحضروها له. من جهتي، فقد تركته ليجد طريقه بنفسه، أما ليندسي فقد كانت تفضّل تجنب الجدال.

قررنا أن نستغلّ وقت الفراغ، فذهبنا في جولة إلى البلدة المجاورة. كانت ليندسي تلتزم الصمت ورجتني أن أتحلى بالصبر والهدوء ليومين آخرين.

عند عودتنا من جولتنا كان الجميع في غرفة الساونا، عفوا، لقد كانوا في غرفة الجلوس الّتي كانت شديدة الحرارة كغرفة الساونا. وبوصولنا استيقظ أوليفر من غفوته وظلّ يبكي حتّى انتقلت به إلى غرفة أخرى أكثر برودة.

بدوت كالأحمق؛ لاهثا، ساخطا، ومعبّرا عن عدم سروري بطرق لا تحتاج لشرح. كانت المشكلة هي أنني بدوت كشخص يبدو متلهفا للظهور بمظهر الأب الذي يحمي ابنه بسذاجة والذي يعتقد أن طفله قد تم سلقه وهو تحت رعاية أشخاص آخرين. حسناً، قد أكون قد بالغت في ردة فعلي ولكنها ليست جريمة أن أكون متلهفا على طفلي، وأقلّ ما أستحقه هو بعض التفهّم من الأشخاص المحيطين بي.

مثل جميع الآباء الجدد، أشعر بالمسؤولية تجاه طفلي، ولكنّي أشعر بهذه المسؤولية بشكل أكثر حدة كوني المسؤول الوحيد عن مصلحته معظم ساعات اليوم. عليّ أن أثبت

لنفسي وللآخرين كفاءتي لهذا العمل، ولكن لو استمرت ردّة فعلي العنيفة هذه تجاه تصرفاتهم وأخطائهم التي يقوموا بها بحسن نية فلن يكون بإمكاني إثبات ذلك.

استحوذت عليّ فكرة أن أكون أبا جيدا، وليس هناك مكان، في فلسفتي، لمقولة (عش واترك غيرك يعيش)، وعندما أجابه بأية آراء متعنتة مشابهة فإنّ كل ما أفعله هو التصادم معها. أعرف أن هذا ليس من العدل في شيء بالنسبة لليندسي وحتى بالنسبة للعائلة. وأعرف في قرارة نفسي أنه يتوجب عليّ المحاولة بشكل أكثر جدّية.

الأوقات المميّزة

اللعب مع طفلك المتجاوب

إن اللعب والتفاعل مع طفلك يعني وصولك إلى تلك المرحلة الحساسة التي تبدأ فيها بالتأثير الحقيقي عليه. وهذا يمكن أن يكون جيدا أو سيئا اعتمادا على كون تأثيرك فعّالاً (اللعب معه بالألعاب، أو بألعاب أخرى تتطلب ارتباطاً به حين يكون ذلك ممكنا) أو أنّ تأثيرك غير فعّال (مجرّد إنجاز آلي للواجبات في بداية ونهاية اليوم).

لا أحد يتظاهر بأنّ حيلة العمل من أجل الحياة هي خدعة بسيطة، ولكن من الممكن أن تستفيد من أكثر الأوضاع سوءاً وذلك عندما تدرك مدى أهمية الوقت الذي تقضيه مع طفلك. فعند بلوغ الأطفال الشهر الرابع من عمرهم يكونوا مثل الإسفنج المتعطش لشرب المعلومات، ولهذا، فإنّ فعاليات مثل القراءة والغناء والقيام ببعض الألعاب الخفيفة ستعطي نتائج عظيمة بلا شك.

لو كان بإمكانك أن تتحكم بجزء معين من نظام طفلك الروتيني - وقت الاستحمام أو وقت النوم هي نقاط بداية جيدة - سيكون بإمكانك عندئذ التركيز على جعل تلك الأوقات أشياء مسلّية وفعّالة قدر الإمكان. وكلما كانت ردّة فعل الطفل أكبر، كلّما أصبحت التجربة مرضية أكثر.

*****

مضى أسبوعان على النظام الجديد وما زلت سعيدا بالحياة. حسنا، لم نقم بعد بتفجير أيّا من القنابل، ولكن نوم أوليفر لمدة ساعتين على الأقل من كل صباح يتيح لي الوقت لأقوم بعملي كل يوم. بعد أن يستيقظ لتناول وجبة الغداء تكون بقية اليوم ملكا لنا، وهذا النظام يسري فقط ليومين في الأسبوع. ويرفرف طائر السعادة طيلة هذا الوقت.

يبدو أن الطريقة، التي اتّبعناها للفطام، كانت تسير بشكل جيد. بدأت ليندسي تطبيقها في العطلة، وكنت أتابع ذلك بعصبية. لم يكن أوليفر يستمتع بالطعام الّذي كنت أقدمه له ولكني وجدت أنه من الصعب عليه أن يستمتع بألياف الخضار والفاكهة. في الحقيقة فإن موضوع البدء بإطعام لطفل لا يتعلق ببلوغه عمراً معيناً وإنما بملاحظتك له ولرغباته - هل يشبع بعد تناول الحليب أم أنه بعدها يبدأ بمراقبتك باهتمام وأنت تأكل -. على كلٍ، فإن من بين الآثار الجانبية للفطام هو تغيّر رائحة ومظهر براز الطفل الذي سيصبح نفّاذاً، وأكثر تلوّنا. وكانت حبة البازلاّء هي المنظر الشائع الّذي اعتدنا مشاهدته.

بما أنّ الطقس بقي سيئاً لم أغامر بالخروج، ولهذا غامرت بأخذ أوليفر ثانية إلى المكتبة لمدة خمس عشرة دقيقة، ومن ثمّ ذهبنا في جولة حول المنطقة بالإضافة إلى جولتين حول مدينتين مجاورتين. لا شيء ملفت ولا شيء مثير، ومع هذا فلا زلت أملك الكثير من الخطط.

بداية قويّة

كيف تساعد في عمليّة الفطام

إنّ الفطام هو موضوع ما يزال يخضع للمناقشة. فبعض الناس يعتقدون أن تغذية الطفل يجب أن تقتصر على حليب أمّه حتى بلوغه الشهر السادس من عمره، وبعضهم يرى أنّه لا ضير من إدخال بعض الطعام المهروس منذ الشهر الرابع. وفي الحقيقة، فإنّ هذا يخضع لرغبة الطفل مع مرور الوقت. فلو بدأ الطفل بالاستمتاع بما يقدّم له من طعام ولم يبد عليه الشبع بعد وجبة الحليب المعتادة، عندئذ يكون الوقت قد حان لتبدأ بتقديم الطعام له.

ومن أهم الأشياء التي ينبغي على الآباء معرفتها،عند بداية عملية الفطام، أنّ الوجبات المنتظمة ستصبح شيئا من الماضي. تكون عمليّة إطعام الطفل رائعة في بعض الأحيان، والانتقال من الحليب إلى الأطعمة القاسية يكون أكثر إثارة بالنسبة للطفل عندما يتمّ تقديمه من قبل الأب.

لا تتورّط في تنمية ولع الطفل بالوجبات الصلبة واستغنائه عن الرضاعة الطبيعية، فمنذ الشهر السادس وحتّى عمر السنتين يبقى حليب الأم أو حتى الحليب المعلب هو الغذاء الأساسي للطفل، فعليه أن يتناول من 550- 600 مل من الحليب كل يوم، ويبقى إدخال الأطعمة في نظامه الغذائي لمجرد جعله يجرب مذاق الأطعمة وبنيتها ويعتاد عليها.

لذا قم بتحويل هذه التجربة إلى أوقات جيدة؛ اشتر ملاعق وصحون مبهجة، أصدر بعض الضجيج الممتع، اخلق جواً من المرح ولكن احذر من أن يغريك هذا فتقوم أنت بالتهام الطعام.

كلّما كان أوليفر يتحرّك كنت أشعر بأنّه يطوّر شخصيته؛ فهو يتدحرج فوق سجادة حجة الجلوس، يبتسم ويناغي. إنها أشياء صغيرة ولكنّها تجعل من تجربته، داخل عالمه، شيء جدير بالاهتمام. كنت سأشعر بالملل بسرعة لو أنّه كان مجرد كتلة ثابتة، ولكننا كنّا نتشارك باللعب، وكنت أقرأ له فأشعر بتعطّشه الحقيقي لمزيد من المعرفة. يا إلهي، لقد أصبحت أتكلّم وكأنّني أكثر الأمهات أو أكثر الجدّات فخرا على وجه الأرض.

طوّر أوليفر، خلال فترة رعايتي له، بعضا من أذواقه الانتقائيّة. كان يبدو مستمتعا، وبشدة، حين عرض الإعلانات التلفزيونية. وما يقلقني هو وجود شيء في هذه الإعلانات يسترعي انتباه طفل في الشهر الرابع من عمره، كما يقلقني أكثر تفكيره بوجوب احترامنا لولعه بهذه الإعلانات. وكارول فوردرمان هي إحدى المذيعات المفضّلات لديه، أمّا "كاونت دام فام" فهو برنامج آخر يأسره تماما. إنّ هذه الأمور تظهر لي بأنّه يتقدّم بشكل متطوّر بينما ما يزال الأطفال الآخرين، الّذين هم في مثل سنه، يبدؤون بالتعرّف على الأحرف والأرقام، إنه الآن يتصرّف كطالب.

"عندما تمسك جانبي صورته لتعرضها"

المرحلة الثالثة من أعراض حب التنافس لدى الأب - الأب المتبجح

لو كان هناك عرض واحد يعرّف معنى تناذر حب التنافس عند الأب فإنه سيكون لفت نظر الناس إلى إنجازات الطفل. كل شخص يفعل ذلك عبر إطلاق ملاحظات يتم توجيهها بطريقة عفوية.

عندما يتعلق الموضوع بفترة بزوغ الأسنان الأولى، أو بدء الطفل بالزحف، فإن هذه المرحلة تبدو، بالنسبة للآباء الجدد، وكأنّها فترة ترويض لهم. نحن نبحث عن طرق جديدة تكون أكثر مكرا لإقناع الآخرين أنّ طفلنا هو طفل عبقري وأن أطفالهم ما هم إلاّ مجرد شيء بدين وقصير يمشي على الأرض.

عندما بلغ أوليفر الشهر السادس من عمره قامت ليندسي بالتقاط صورة له وهو يقود الدراجة التي وضعه جدّه فوقها، وبعد أن قمت بإسناده من الخلف طبعا، عالجت الصورة بحيث بدا أوليفر فيها يقود دون أيّ مساعدة. كنا نظهر هذه الصورة للعائلة والأصدقاء، من حين لآخر، فكانت تعابير الدهشة والإعجاب تظهر على وجوههم. هل تراني أشعر بالخجل من قيامي بهذه الخدعة؟ أبداً. فهذه من أكثر الأشياء إمتاعا للأهل، وأتحدّاك أن تشعر بغير هذا.

على كل حال، لا تخطئ، بأخذك لأي من هذا الكلام على محمل الجدّ. كلّ الأطفال سيبلغون الحدث المهم نفسه، ولو أنّ بعضهم سيصل أسرع من الآخرين، ولكنّ هذا لا يعني شيئا في النهاية، والشيء الوحيد الّذي سيحسب هو أنّهم سيصلون أخيرا إلى هذه المرحلة

بالرغم من أننا نحصل على كثير من المتعة والمرح في أثناء وجودنا معاً، إلاّ أنني أشعر براحة كبيرة عند عودة ليندسي إلى البيت في نهاية اليوم. فبالرغم من أن العناية بطفل في مثل عمره، ولطوال اليوم، ليست منهكة كثيرا، إلاّ

أنّها تأخذ الكثير من الوقت. فهو عندما يكون مستيقظا لا تكون لديّ أيّ فرصة للانسحاب وقراءة الصحف ولو لمدة نصف ساعة لأنه يحتاج لوجودي معه طالما كان مستيقظا. أليس هذا انتهاك فاضح لحريّتي، واحتجاز لكامل وقتي؟

الناحية الإيجابية لارتباطي به والتي بدأت ليندسي تلاحظها هي أنّ هناك تشابهاً واضحاً بين طباعنا، فكلّ منّا لا يستطيع النهوض صباحا حتى يحصل على كوب الحليب بالشاي، وكلّ منّا يتصرّف بشكل هزلي حين يتلقّى ضربة أو صدمة، كما أنّ لدينا إعجاب مشترك ببعض الحركات الكوميدية. هل تراني أقوم بصياغة الفتى ليصبح نسخة عنّي؟

لا أظنّ أنّ ليندسي تشعر بالغيرة من هذا الارتباط الحاصل بيني وبين أوليفر؛ فهي مستمتعة بعملها الّذي يستحوذ على عقلها، والّذي استطعنا من خلاله القيام بتسديد ديوننا. ولا أظن أنّ عملها سيكون ذا فعالية فيما لو بقيت أنا في البيت طوال فترة الشتاء، لقد بدأ الخوف من الاحتجاز ينتابني.

الصندوق الأحمق

مشاهدة التلفاز مع طفلك

فيما يتعلّق بمشاهدة التلفاز، عليك التصرّف بقليل من التملّق، فبعض التقارير تشير إلى أنّه يتوجّب على الطفل ألاّ يشاهد

التلفاز لأكثر من ساعة في اليوم. ولكنّك لا تستطيع تطبيق هذا الأمر على طفل صغير لم يصل بعد إلى مرحلة لعب كرة القدم، فهو يميل إلى الجلوس، ولفترة طويلة، في مكانه نفسه لمشاهدة التلفاز.

يكون التلفاز وسيلة جيدة في بعض الأوقات، فالبرامج الموسيقية تجذب انتباه الطفل، وتنوّع اللهجات ضروري لاكتساب المهارات اللغويّة، ويبدو أنّ البرامج المرئيّة، التي تستخدم التباينات القويّة، تشدّ انتباه الطفل وخاصة الإعلانات والرسوم المتحرّكة. أنا شخصيًا لا أنصح باستخدام التلفاز كوسيلة تعليم من أجل تطوير عقل طفلك، ولكنّ هذه الأداة تصبح مصدر مفيد للتسلية عندما تكون أنت بحاجة لأخذ استراحة من طفلك لمدة نصف ساعة، ولا يتوجّب عليك الشعور بالذنب لاستخدامك لهذه الوسيلة بهذه الطريقة.

*****

استمتعنا بيوم عائلي مسلّ، رحلة إلى أحد أماكننا المفضّلة، إلى المستشفى! كنّا قد قمنا بعدّة زيارات من أجل إجراء بعض الفحوص الطبيّة للينسي، أثناء حملها، ولكنّها الزيارة الأولى، المتعلّقة بأوليفر، الّتي نقوم بها.

حاولت المرشدة الصحيّة، خلال إحدى زياراتها لنا في العام الماضي، إجراء اختبار لحاسّة السمع لدى أوليفر. وضّحت لنا أن هذا الاختبار شديد الحساسية ويحتاج لهدوء تام. وهذا ليس بشيء سهل عندما تكون قاطنا بالقرب من الشارع العام والخط الرئيسي لسكة القطارات. قامت تلك المرشدة باختبار على إحدى أذنيه فكانت جيدة، ولكنّها فشلت في قراءة اختبار الأذن الأخرى بسبب الضجيج المنبعث. كان

عليها أن تذهب إلى موعدها التالي فوعدتنا بإنهاء الاختبار في المرّة القادمة، ولكنها مرضت بعد ذلك ولم تستطع الحضور لعدّة أسابيع، وعندما حضرت فشل الاختبار ثانية بسبب ضعف فعالية الحزام الموصل لآلة الاختبار. بعد مدة تلقينا رسالة تخبرنا بضرورة الذهاب إلى المستشفى لإجراء مزيد من الاختبارات، وعندئذ بدأ القلق ينتابنا.

ولهذا السبب نحن في المستشفى اليوم. دهشت المرأة، التي تجري الاختبار، من أنّ أوليفر قد بلغ هذا العمر فقد كانت تتوقع أنّ عمره لا يتجاوز الأسابيع. طلبت من ليندسي الجلوس ووضع أوليفر في حجرها وتهدئته كي ينام حتى تتمكن هي من وضع مجسات الاختبار على رأسه. إلا أنّ هذا لم يحدث أبدا، فكلما أصرت على بقائه ساكنا وهادئا كان هو يبدو أكثر انفعالا وحركة.

بدا الانزعاج واضحا على وجه المرأة، ويبدو أنها ظنّت بأننا كنا نحاول العمل على فشل الاختبار فحذّرتنا بأنها ستكون مضطرة للقيام بتوجيه كتاب ملاحظة لنا لنكون أكثر تعاونا. هنا شعرت بأن الأمور بدأت بالخروج عن السيطرة؛ وسرعان ما فكرت بالاستعانة بالخدمات الاجتماعيّة بعد أن شعرت بانزعاج كبير.

شرحت ليندسي بهدوء الظروف المحيطة بالاختبار، وكانت هذه قضية تقليدية مرّ كثير منها على مثل هذه

المؤسسات القديمة. إنّ بعض الأشياء لا تحدث عندما يجب أن تحدث، ولهذا وجدنا أنفسنا في موقف يزداد تصعيداً وتعقيداً. أنهت المرأة أخيرا الاختبار البسيط، الذي كان قد فشل وسط ضجيج منزلنا، وأظهرت النتائج أنّ أوليفر يتمتع بحاسة سمع جيدة. وبمجرد عودتنا إلى البيت كان بوسعنا، وخلال عدة دقائق، التحدّث دون أي توتر أو انفعال.

*****

حمل شهر آذار عملا إضافيا للينديسي، وبهذا فقد تجدد نشاطي لأن أجد أشياء جديدة أعملها مع أوليفر. وأصبح هذا الأمر يشكل مشكلة بعد أن بدأ أوليفر يتخلّى عن إغفاءاته الصباحيّة المريحة. وهذا مؤلم لسببين، أولا، هو ما يزال بحاجة لأن ينام وحتى لو لم يكن يدرك هذا، وثانيا، لم يعد باستطاعتي أبدا العمل قي الأيّام الّتي أكون فيها وحيدا معه.

كان يستيقظ بمجرّد أن أبدأ بعمل ما ولم تكن غفوته تستمر لأكثر من عشرين دقيقة. وللإيقاع بي، كان يستغرق في النوم لمدة ثلاث ساعات، أحيانا، ويكون ذلك فقط في الأيّام التي أقرر فيها الانسحاب والجلوس للعب ببعض ألعاب الكومبيوتر. إنّه لأمر محبط لأنّي حينذاك أجد نفسي منزعجا ومتوترا لبقيّة اليوم.

حاولت جاهدا أن أعكس نظام نومه فأحمله على أن ينام فترة بعد الظهر، ولكنّه أثبت أنّه عنيد مثل ... في الواقع إنّه

مثل أبيه. إن الجانب السلبي من محاولتك إيجاد نسخة مطابقة عنك هو أنّك ستجد نفسك مضطرّا للتعامي عن كل الأخطاء.

كان عليّ، على سبيل التغيير، التوقف عن التعامل مع أوليفر كأبّ طيلة الوقت، وقررت أخذه في جولات تعليمية حول المنطقة. لا شيء سينجح لو فشلت هذه الطريقة في جعل هذه الآفة العنيدة الصغيرة تستغرق في النوم.

*****

بدأ كل شيء بداية سيئة، فلو كنت أعرف أن الساحة الحجرية التي اصطحبته إليها تتطلب منا المرور ضمن حقلين للأبقار لما كنت حاولت أبدا القيام بهذه الجولة. بدا الجوّ مشرقا حين غادرنا المنزل ولهذا فإنّ هطول المطر كان مفاجأة غير سارّة أبدا. كانت الرياح ورائحة الأبقار ملازمتين لشعورنا الغامر بخيبة الأمل التي يشعر بها المرء عند النظر إلى أكوام الصخور المتكسّرة في الحقل. وضعت أوليفر في عربته التي دفعتها عبر السياج. ودفعت جنيها للحصول على هذا الامتياز.

ذهبنا، بعد هذا النشاط الثقافي، لرؤية بعض زملائي السابقين في الجريدة المحلية الذين أبدوا دهشتهم الشديدة لرؤيتي مشاركا بهذا النشاط الاجتماعي. وحصل أوليفر على الكثير من الاهتمام والمداعبة من قبلهم. وبالرغم من أنه كان هادئا بشكل غريب، ومتظاهرا بالنوم، خلال عودتنا، إلاّ أنني شككت في أنه قد استمتع بهذا الجزء من اليوم.

كان هناك جانب ممتع تخلل زيارتنا، فقد قامت إحدى النساء بالسؤال فيما إذا كان بإمكانها تقديم أي مشروب لأوليفر، ولكنّي رفضت موضحا بأنه لم يبلغ إلاّ الخمسة أشهر فقط، فأومأت برأسها وفكّرت ثم قالت: "ما رأيك بقطعة من الكعك إذا؟". شرحت هذه المرأة، التي كانت أمّا لطفلين، كيف أنّ الأهل سرعان ما ينسوا الأمور المتعلقة بمراحل تطوّر الأطفال، وكيف أنّه من الخطر قبول النصائح من أي شخص يدّعي بأنّه مرّ بكل تلك المراحل، لأن مثل هؤلاء الأشخاص لديهم مزيج خطر لا يمكن تغييره من الثقة بالنفس والذكريات الشحيحة التّي تضاف بشكل متهوّر إلى النصائح غير الحكيمة.

لم تمنعني هذه البداية المشؤومة من أن أحاول ثانية، ولكن هذه المرة مع أشياء أكثر مادية. ولهذا، وبعد انتظار عدة أيّام من أجل أن تتلاشى آثار الرحلة السابقة، أخذت أوليفر في رحلة إلى قلعته الأولى.

هناك أشياء غريبة تحدث لي وذلك في الفترة الواقعة بين مرحلة التخطيط للرحلة والقيام الفعلي بها، ويشمل ذلك نسيان أخذ كل الأشياء الأساسية. فقد أدركت بأني نسيت الفوط مرة أخرى وأني لم أحضر أي شيء للأكل أو الشرب. وكانت عربة أوليفر الكبيرة، التي ما تزال مغطاة بالوحل، هي الشيء الوحيد الذي قمت بإحضاره.

حمل الأثقال

القيام بالرحلات بدون استخدام عربة الأطفال

يتوق طفلك، في هذه المرحلة، إلى رؤية مناظر متنوّعة أكثر من تلك التي يستطيع رؤيتها من خلال عربته، ولكنّ وزنه سيكون آخذ في الزيادة أيضا. والأفضل هنا استخدام حمّالة أطفال تكون أكثر متانة وصلابة من تلك التي تستخدم بعد الولادة.

في الحقيقة لم يستمتع أوليفر كثيراً بذلك الإحساس بالضيق من وجوده في مثل هذه الأماكن المغلقة الصغيرة. بالإضافة إلى ذلك كان حرارة الجو تميل إلى الارتفاع مما سيجعل استخدام تلك الحمالة غير مريحاً. أما الحمّالة الكبيرة فستكون أكثر راحة لك وللطفل إلاّ أنها ستكون أكثر ثقلا في الحمل. وعندما بدأ أوليفر بالتمرد على البقاء في عربة الأطفال أتاح لنا هذا اختيار استخدام الحمّالة الجديدة التي ستكون أفضل في نزهاتنا في المناطق الوعرة.

قد يكون المجال متاحاً لديك لتجريب عدد من هذه الحمّالات إذا كنت تنوي اقتناء واحدة منها، ولكنّي أنصحك وبشدّة أن تقوم بتجربتها ضمن المتجر، فبعضها يسهل عليك ارتداؤه وخلعه بنفسك، وبعضها الآخر يحتاج ارتداؤه إلى مساعدة شخصين على الأقل مما يجعلها غير عمليّة على الإطلاق.

كانت شمس الربيع الساطعة تغمرنا عندما كنا في السيارة، ولكن عند خروجنا منها أخذت حبّات المطر تنقر بشدة على الزجاج. كان أوليفر يرتجف من البرد وبدأ ينكمش على نفسه. سيعرف أوليفر تماما على من سيلقي باللوم عندما يكبر وهو يحمل في نفسه كرهاً تجاه الآثار والمعالم التاريخية. مشينا باضطراب، وكنت أجاهد لدفع عربته،

وتجولنا حول عدة مناطق محيطة بالقلعة. بعدها قمت بصرف بعض النقود في المتجر ثم توجّهنا للمنزل. وما زلت مصرّا على القيام بمزيد من هذه الرحلات الثقافية.

*****

أشعر وكأنني مدفوع باتّجاهين؛ سيكون على ليندسي، خلال الأسبوعين القادمين، أن تعمل لأربعة أيّام في الأسبوع، وهي لن ترغب بأن تكون مسؤولة طوال الوقت عن رعاية الطفل خلال الأيّام الثلاثة المتبقّية، ولو حصل هذا الأمر فإن أحدنا لن يرى من الآخر شيئا. وبهذا فإنّ حياتي العمليّة ستتقلّص إلى لا شيء تقريبا. وفي الوقت نفسه، فإنّ أوليفر سيكون بحاجة إلى مزيد من الرعاية حين يكون معي. ينتابني شعور بأنني، وبالتأكيد، سأختفي رويدا رويدا.

لم أستطع التغلّب على شعوري هذا بالرغم من خروجي بصحبة أوليفر ومقابلة بعض الجوار. كان مستوصف الأطفال، حيث أصحب أوليفر كل أسبوعين لأخذ وزنه، هو المثال الحيّ عن المكان الذي لا أجد نفسي فيه ببساطة. فعندما نصل غرفة الانتظار، حيث تجتمع الأمهات ويتبادلن النكات ويضحكن، أجلس محاولا أن أبدأ حديثا قصيرا سرعان ما يساء فهمه من البداية إلى النهاية، فأنسحب وأغرق في الصمت منتظرا دوري.

وتتكرر القصة في كل مكان نذهب إليه؛ في الحديقة أو في محلات البقالة، فيكون واضحا بأنّ وجودي هناك ما هو إلا احتلال لمكان شخص آخر أو أنني نوع استثنائي يجب نبذه في كل مكان. أنا على ثقة تامة بأني لو بذلت مزيدا من الجهد فسيكون بإمكاني أن أحظى بمحبة هذا المجتمع وتقديره. ولكني أعتقد بأنه لو كان علي القيام بكثير من التغييرات فسيكون هذا المجتمع هو النادي الذي لا أودّ الانضمام إليه. لا أشعر بأني أب طوال الوقت، وربما كان هذا جزء من المشكلة. فأنا أريد الأفضل من العالمين؛ أريد قضاء وقت مميز مع أوليفر وأريد الحرية التامة لأتابع عملي. وأنا أحاول، في الوقت الراهن، الحصول على الاثنين معا، ولكنني لا أستمتع بأيّ منهما.

*****

بقينا نقوم برحلاتنا مرة أخرى، وكانت هذه الرحلات إعادة للرحلة الخاطفة التي قمنا بها عندما كان أوليفر في الأسبوع السادس من عمره. في هذه المرة قمنا، أولاً، برحلة خاطفة إلى مانشستر لزيارة عائلة ليندسي لتتصادف هذه الزيارة مع حلول عيد الأم. لم يكن في هذه الزيارة شيء يشبه الزيارة السابقة التي استطعنا فيها الحصول على قسط من النوم. أما هذه المرة فلم نستطع الحصول على أي شيء إطلاقاً، حيث قام أحد الكلاب برمي القاذورات على كامل

سجادة أخت ليندسي. وفي الخامسة من بعد ظهر يوم عيد الأم، كانت ليندسي تفتح هداياها بعد أن غط أوليفر أخيرا في النوم، كنت أعمل جاهدا لتنظيف السجادة المتّسخة. لديّ بعض الشك بأن في الحياة شيء أستحق العيش من أجله أكثر من هذا.

لم نأخذ عبرة من الدروس السابقة، لذا توجهنا نحو بيت عائلتي لقضاء عيد الفصح. كانت تلك فرصتنا الأخيرة للخروج قبل بداية الأيام الأربعة التي تعمل فيها ليندسي، وقد رفضنا التخلي عن الخروج في رحلات لئلا يتخلخل النظام الذي كنا نتبعه مع أوليفر.

أخذت الأمور بالتحسن قليلا بالرغم من أنّه ما زال ينام بشكل سيئ مما كان يترك لدينا شعورا بالكآبة والنكد. وقريباً سرعان ما ستبدأ دعوات الأصدقاء لنا للخروج معهم بالتناقص تدريجيا، وعندئذ لن نكون قلقين،على الإطلاق، بشأن الخروج. ولم يتبق لنا إلا قدراً بسيطاً من الطاقة والنشاط سيمكننا من الاحتفال ببلوغ أوليفر الشهر السادس من عمره. لقد حصل كثير من الأشياء خلال هذه الأشهر الستة لدرجة يستحيل معها تذكر شكل الحياة أو شكلنا كبشر قبلها.